الحب العذري

بين

الشاعر عروة بن حزام (في النونية)
والشاعر قاسم بن محمد بن عبد الوهاب الفيحاني

د. فضل بن عمار العماري

وبعد فما زال الشعر النبطي بعيداً عن متناول البحث العلمي الذي يسلط الأضواء على دقائق فنية، وموضوعية معينة، يمكن أن تستثمر للكشف عن مسائل شائكة تناولها الأدب القديم وكانت على خط متواز في التفكير والرؤية مع روح ونظرة شعراء النبط. ومن الحق أن نقرر أن بعض الدراسات في هذا الميدان قد تلمست بعض تلك الوجوه، إلا أنها على كمها محدودة، ومشتتة الأهداف. ولعل السعي في تحقيق، ونشر القدر الممكن من شعر فترة ما قبل الخمسينيات من هذا القرن ـ حيث من المتوقع أن يكون الإنتاج محتفظًا بروحه ومنهجه ـ قد يساعد على توفر مادة كافية للمقارنة، والدرس مع التوجيه للتعمق في الخصوصية والدقة.

ومن هنا فقد اتخذ هذا البحث من شخصيتين بارزتين في هذين

الأدبين، الأدب القديم ويمثله ابن حزام، والأدب النبطي ويمثله محمد بن عبد الوهاب الفيحاني، بوصفهما ممثلين لتيار واحد هو التيار العذري، وسيلة للتعرف على حقيقة ذلك التيار وواقعية ممثليه. خصوصًا وقد تعرض الشعر العذري إلى حملات من التشكيك والافتراضات المجانبة في كثير من جوانبها للوقائع والاحتمالات.

إن شاعرنا المعاصر هو محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الوهاب الفيحاني. وقد أشار إلى نسبه ذاك فقال(١):

قيل يحرك من بقلبه جماده
من قول ابن قاسم سليل ابن فيحان

ولد شاعرنا في الفويرط شمال قطر في حدود سنة ١٣٢٥هـ، وتوفي عام ١٣٥٣هـ(٢).

أما عروة بن حزام. فهناك رأيان حول عصره. أحدهما يقول: إنه عاش في الجاهلية، وأدرك خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد قالوا: إن عمر قال «لو أدركت عفراء وعروة لجمعت بينهما»(٣).

والرأي الآخر يقول: إنه عاش حتى فترة معاوية، اعتماداً على رواية النعمان بن بشير حيث يقول: «بعثني عثمان أو معاوية مصدقًا لبني عذرة، فصدّقتهم، ثم أقبلت راجعًا، فإذا أنا ببيت حريد ليس قربه أحد، وإذا رجل بفنائه مستلق على قفاه، لم يبق منه إلا جلد وعظم، فلما سمع وجسي، ترنم بصوت حزين:

جعلت لعراف اليمامة حكمه

فقلت له: «أنت عروة؟» قال: نعم، قلت: صاحب عفراء؟ قال: نعم(٤).

ويبدو أن الرأي الثاني هو الصواب؛ لأنه يبعد أن يقول عمر ذلك لانصرافه رضي الله عنه إلى أمور جدية، ومسائل أهم من علاقة فردية لا تمس أمور المسلمين. والأمر الآخر هو أن العذرية كما نشهدها عند الشعراء العذريين؛ كالمجنون وجميل بثينة، وقيس بن ذريح، لم تكن معروفة في العصر الجاهلي.

هنالك مثلا قصة عبد الله بن جدعان(٥)، ولكنها لا تشبه حب هؤلاء. ومن ثم فإنه يبدو أن حديث النعمان ابن بشير يتوجه إلى عصر معاوية وليس كما ذهب إليه أحد الباحثين من أنه في زمن الخليفة الراشد عثمان بن عفان(٦)، على الرغم من أن (أو) كانت هي المسؤولة عن ذلك ؛ ذلك لأن معاوية كان يستغل دهاءه في إشغال زعماء الأنصار بقضايا مثل جمع الصدقات، وقد وضح ذلك ابن قتيبة، حينما نسب إلى معاوية قولاً شبيها بما نسب إلى عمر رضي الله عنه في الجمع بين عروة وعفراء(٧).

وعلى هذا فإن زمن عروة قد اندرج في زمن الشعراء العذريين من أمثاله.

وعلى العموم، فإنه من المستبعد جداً أن تكون شخصية عروة، هذه الشخصية المتهالكة المحطمة، قد وجدت في مجتمع الجاهلية. فلقد كان الشاعر الجاهلي يستخدم القوة من أجل الحصول على المرأة، وكان الرجل الذي يحظى بحب المرأة هو الفارس الشجاع كما هو معروف من قصة عنترة بن شداد وابنة عمه عبلة. ولذلك كانت المرأة تحاط بحراسة شديدة.

كما عبر عن ذلك علقمة الفحل في قوله:

منعمة لا يستطاع كلامها   على بابها من أن تزار رقيب(٨)

ومن ثم فحب المرقش وابن جدعان وغيرهما حب كان التيار الجنسي هو الدافع الرئيسي وراءه، وكان الإخفاق في الحصول على الجنس قد انعكس على نفسياتهم وإنتاجهم الشعري.

أما الحالات العذرية في العصر الجاهلي فهي حالات الرحيل، حيث يعبر الشاعر عن آلامه وأحزانه بعد أن انتزعت منه محبوبته وغادر بها أهلها إلى غير رجعة، فمن ذلك قول بشر بن أبي خازم:

تعنى القلب من سلمى عناء   فما للقلب إذا بانت شفاء
هدوءا ثم لأياما استقلوا   لوجهتهم وقد تلع الضّحاء
وآذن أهل سلمي بارتحال   فما للقلب إذا ظعنوا عناء(٩)

وكما قل الشماخ

بما تحت مكنون من الصدر منشرح (١٠)

وكادت غداة البين ينطق حرفها

وقد يرد إلى الذهن أسماء شعراء أحبوا مثل المرقش والمتنخل(١١). ولكن هذا الحب مهما كانت صفته هو غير الحب العذري الذي عرفناه فيما بعد، فهل يحق لنا أن نصف المرقش بالعذرية وأن نضمه إلى العذريين وهو الذي يقول:

ورب أسيلة الخدين بكر   منعمة لها فرع وجيد
وذ أشر شتيت النبت عذب   نقي اللون براق برود
لهوت بها زمانا من شبابي   وزارتها النجائب والقصيد(١٢)

هذا الشعر لا يختلف في صراحته عن امرئ القيس. وإنه حقا لمن المؤكد أن المرقش وغيره تحرقوا وتعذبوا في علاقاتهم بمحبوباتهم، ولكن كل ذلك لا يسمح لنا - كما انكشف من شعر المرقش - بأن نصفه بالحب العذري. فشرط الحب العذري كما هو واضح من حياتهم أن يكون العذاب والألم سابقين عليه، وباستثناء حالة جميل بثينة، فإن وجود حائل من الزواج هو عقدة قصة ذلك الحب. وقد وصف الطبّاع الحب العذري فقال: «هو ظاهرة اجتماعية جديدة بعض الشئ في حياة العرب»(١٣). كما قال: «لم يعرف العرب الحب العذري، إلا في منتصف القرن الأول للهجرة»(١٤).

وقال الجواري: «الحب العذري ظاهرة اجتماعية إسلامية لم نعرف لها أصلاً في العصر الجاهلي»(١٥).

ولهذا قرر اليوسف بحق أنه «لم يكن من الممكن أن تظهر العذرية في المرحلة الجمهورية (العصر الراشدي)»(١٦).

وعلى هذا الأساس، فإن العذرية لم تنشأ إلا مع الإسلام، ونجد ذلك واضحاً في قول حميد بن ثور الهلالي يصف سَرْحة وكنى بها عن امرأة:

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه   ولا الفيء من برد العشي تذوق(١٧)

لقد جاء الإسلام بمفاهيم غير ما كان عليه الجاهليون، وكان مفهوم الحجاب الإسلامي تغييراً نوعيًا في العلاقات بين المرأة والرجل. ومع الإقرار بوجود الحجاب في الجاهلية فإن «الحجاب بمعنى قرار المرأة في دارها والاحتجاب دون الرجال... لم تعرفه المرأة في ذلك العصر»(١٨).

لقد ذهب طه حسين إلى القول عن الشعراء العذريين: «إنهم كانوا في شئ من اليأس والفقر غير قليل.... فقد كانت الحياة المادية عند أهل البادية بعد الإسلام شراً مما كانت عليه قبل الإسلام... في الحياة المادية تبعثه شئ من الأمل في حياة أخرى ليس واضحًا في هذه النفوس الساذجة...»(١٩).

وعند هذه النقطة سيدور حديثنا، إذ لا يهمنا ما يقال عن التأثير الأفلاطوني في الشعر العربي(٢٠).

لقد قلنا إن الإسلام هو الذي هيأ محيط الحب العذري، وهو رأي يذهب إليه باحثون آخرون(٢١). أما طه حسين ومن يذهب مذهبه، فهم يرجعون السبب إلى الحالة الاقتصادية أو السياسية. إن الحالة الاقتصادية قد تصدق في فترات متأخرة عندما أخذ مركز الدولة الإسلامية يبتعد شيئًا فشيئًا عن الجزيرة العربية، أما في حالة العذريين، فإن ذلك غير صحيح إطلاقا، إذ إن النقلة الحضارية بين الجاهلية والإسلام لم تكن بعيدة خاصة بالنسبة لظروف قبائل شبه حضرية مثل قبيلة بني عذرة، وإن التكيف الاقتصادي أو السياسي مع الوضع الجديد ليس صعبًا، وهم يعيشون في مناطق استقرار توفر لهم الغذاء ومرافق العيش الاعتيادية.

ولقد ذهبت جماعة من الباحثين إلى إنكار أن يكون هناك أشخاص عذريين بأعيانهم، وافترضوا أن كل ذلك محض اختلاق، في حين أن طه حسين ذهب إلى إنكار المحبوبات: ليلى، بثينة، وعفراء، فقال: «أكبر الظن أنها لم توجد، وإنما هي المثل الأعلى في الجمال والحب واللين والرقة والدعة وغير ذلك من هذه الخصال التي يتغناها الغزليون»(٢٢).

وهناك كثير من الباحثين يستبعدون أن يموت عاشق من الحب أو يجن ويختلط عقله. ويقول محمد حسن عبد الله عن قصص الحب العذري إنه «بولغ كثيراً فيها فيما تنطوي عليه من ضروب الحرمان وتتخللها الإغماءات وحالات الاكتئاب، وكثيراً ما تنتهي بالجنون والموت»(٢٣). ثم يقول: «ونحن نستبعد أن تكون هذه القصص تعبيراً مباشراً عن واقع حدث كما ترويه»(٢٤). بل يقول عن هذا القَصص: «إنه وضع تعبيراً عن حالة مزاجية، تنطوي عليها النفس العربية، وإنه يزدهر حين تصادف هذه الحالة المزاجية في الأزمات ما يزكى فيها خوفها الدفين من الفرح بالحياة واغتنام لذائذها»(٢٥).

وإذا كنا قد اخترنا عروة بن حزام، فلعله الأقدم من بين هذه المجموعة. وإذا كان المفكرون ينكرون شخصية عروة، فقد ذكر عروة في شعر إسلامي ليس ببعيد عن عصر عروة،

قال جميل:

فما وجدت وجدي بها أم واحد   ولا وجد النهدي وجدي على هند
ولا وجد العذري عروة إذ قضى   كوجدي ولا من كان قبلي ولا بعدي(٢٦)

وقال الأحوص:

فعروة سن الحب قبلي إذ شقى   بعفراء والنهدي مات على هند(٢٧)

وقال كثير:

وأصبحت مما أحدث الدهر خاشعا   وكنت لريب الدهر لا أتخشع
وعروة لم يلق الذي قد لقيته   بعفراء والنهدي ما أتفجع(٢٨)

وقال جرير:

هل أنت شافية قلبا يهيم بكم   لم يلق عروة من عفراء ما وجدا(٢٩)

وقال العباس بن الأحنف وهو ممن ينسب إلى الحب العذري:

ما إن صبا مثلي جميل ُفاعلمي   حقا ولا المقتول عروة إذ صبا
لا، لا ولا قبلي المرقش إذ هوى   أسماء للحين المحتم والقضا(٣٠)

ولعل في هذا الترتيب الذي وضعه ابن الأحنف ما يبين لنا أزمنة هؤلاء الشعراء: جميل ـ عروة ـ المرقش. فجميل شاعر أموي، وعروة في أوائل الدولة الأموية، والمرقش شاعر جاهلي. فعروة إذن، شخصية واقعية ومن الصعب إنكارها. أما إدراج المرقش من ضمن هؤلاء فهو من باب التغليب لشهرته في الحب فقط. وقد رأينا شاعرنا المعاصر محمد بن عبد الوهاب يذكر هو أيضا شعراء محبين نبطيين قبله ويدرج من بينهم شعراء حسيين مثل ابن لعبون وذلك في قوله:

مشيت بما مشى راعي الحريقي   وبن لعبون والحزب العشيق
لحاهم غيهم وازوا نشاشي   على جمر الغضا راحوا مواشي
تراهم بالهوى دوم غواشي   يعضون إليهم في كل وادي
وبن عشبان من قبلي مهاوي   دوى به من غرام الحب داوي
مضى ما فاد به طبة مداوي   ولا فاد التعوّذ والمسادي(٣١)

وقوله:

ما سمع سالم ولا وطاوع سليم   بالهوى والحب يرجمهم رجام

وبعده يقول:

واستغاث من الهوى راعي القصيم   وابتلى الناعي على ديم الخزام(٣٢)

وربما استفاد من التراث العربي الأدبي القديم، فذكر بعض شعراء الحب، توبة بن الحمير، وعبد الرحيم البرعي في قوله:

ولكن صابني ما صاب توبة   وقبلي بالهوى صاب العقيلي(٣٣)

وقوله:

والهوى قبلي تلف عبد الرحيم   واستجار من الهوى عبد السلام(٣٤)

ويبقى بعد ذلك الشعر المنسوب إلى عروة، وأشهر قصيدة له هي النونية التي سنأتي على الحديث عنها ومطلعها:

خليلي من عليا هلال بن عامر   بصنعاء عوجا، اليوم وانتظراني(٣٥)

وقد قال القالي عنها: «وقصيدة عروة هذه النونية يختلف فيها الناس في بعض الأبيات ويتفقون على بعضها(٣٦). وليس غريبًا أن تختلط أبيات القصيدة، فقد حفظتها لنا الرواية الشفوية بهذا النحو. والنقطة المهمة هنا هي هل أضيف إلى شعر محمد بن عبد الوهاب شئ على الرغم من أن جزءا منه اعتمد على الرواية الشفوية. وقد انتشر ما عثر عليه من شعره بعد وفاته وتناقلته الألسن في بلاد قطر والبحرين والمملكة العربية السعودية، كما انتشر في عمان(٣٧).

وقد استمعت شخصيا إلى قصائد ينشدها رواة شعبيون لشعر محمد بن عبد الوهاب، ورأيتهم أحرص الناس على« ضبطها واتقانها. وكان أحدهم إذا أخل بجزء من قصيدة ما، بادر الآخر ليصوبه فيعود ذلك إلى الإتفاق معه أو إقناعه. ويدعم هذا الوضع من الرواة الشعبيين، الأبيات الأولى التي أوردها القالي وقال: « فالأول الأبيات المجتمع عليها »(٣٨). وإذا وضعنا في الاعتداد أن الشعر ينتمي إلى المأثورات الشفاهية ذات النص الثابت على الرغم من السماح بقدر لابأس به من الدمج والجمع والتحريف بسبب عملية التناقل(٣٩) وهو وضع لم يتم في حالة محمد ابن عبد الوهاب لقصر المدة الزمنية الفاصلة بين حياته وفترة التدوين. ومن هنا يذهب بنا الظن إلى أن الأبيات التي قال عنها أبو علي القالي: «وما يتلوها مما يختلف فيه»(٤٠). هو أبيات إما أن تكون له حقيقة، وإما أنها تداخلت مع أبيات لشعراء غزليين من أمثاله. مما لاحظه على أشعارهم محمد سعيد الدغلى وأرجعه إلى المعاصرة: «فهم يتلاقون ويتناشدون الأشعار ويتفاضلون فيما بينهم ويتساجلون ويتفاخرون ثم لا يتورعون عن أن ينقلوا عن بعضهم بعضًا بطريق

المصادفة أو الخطأ المقصود »(٤١)، ويرجعها إلى « تقارب الشعور »(٤٢).

وليس غريباً بعد أن تكون قصيدة عروة طويلة نسبياً (٧٨) بيتاً، فبعض قصائد الفيحاني طويلة أيضا. فقصيدته التي يقول فيها:

على وامن غدا قلبه بهيمه   ومن ضيع دليله في عيايه(٤٣)

تبلغ (٦٠) بيتاً. وقصيدته التي يقول فيها:

ماجور ياقلب عن الوصل بقيود   ناحيك عن لاما الحبايب بلايا(٤٤)

تبلغ (٥٩) بيتاً. وقصيدته التي يقول فيها:

ياالله يا علم ياخفي كل مضمور   يامن على عرشه إله السما صار(٤٥)

تبلغ (٦٦) بيتاً. ويبدو أن الطول النسبي مقبول من شعراء يعانون من ضغط داخلي فيحاولون التعبير عنه. وإذا كان شعر عروة قد روي شفوياً، وهكذا شعر الفيحاني، فقد كان الفيحاني يتميز بمعرفته للكتابة على الرغم من أنه لم يكن مهتماً بتدوين شعره في سجل واحد والمعتقد أن قصائد كثيرة من شعره ضاعت مسوداتها، وإن وجد كثير من شعره أيضا مسطراً في قراطيس عثر عليها بعد وفاته(٤٦). ولقد أشار الشاعر نفسه إلى الكتابة في شعره، كما قال:

تفترقي جوفك دواليب الأشعار   عامين ما وقف القلم من صريره (٤٧)

وقوله:

ما شفتني أبري القلم للتساطير   في ذم بو حشو جلده عشايب(٤٨)

فنحن نستبعد أن تكون أيدي العبث قد تعمدت صنعة أشعار على عروة، وإن تكن ربما اتخذت من المجنون وسيلة تسلية، وجذب للمستمعين والقراء حتى ليقول في الأغاني: «أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروي أشعار المجانين(٤٩)،

ذلك لأن عروة ظل بعيداً عن ذلك التناول حسبما تبين الأبيات المختلف عليها، والتي لم تخرج في صياغتها وتركيبها وعاطفتها عن الأبيات المتفق عليها، مما يؤكد سلامتها من عبث القصاصين، وإن بعض ما نحس فيه من خروج على ذلك، إنما يعود إلى ظاهرة التداخل والاختلاط.

فإذا عدنا إلى الأوضاع التي افترضها طه حسين لقبيلة بني عذرة، فإننا سنجد أن هذه الأوضاع، هي الأوضاع نفسها لقبيلة البوكوّارة. فهذه قبيلة ليست بدوية تعتمد على التنقل والترحال، ورعي الإبل، بل هي قبيلة بين بين. هي قبيلة تتمسك بكل الأعراف والتقاليد البدوية، وهي في الوقت نفسه تمارس استخراج اللؤلؤ وصيد الأسماك. ثم هي قبيلة مستقرة تسكن الدور والعمران. كما أن التغييرات السياسية التي صاحبت مجيء آل ثاني إلى الحكم كانت قد أحدثت تغييرات نوعية على مستوى الحكم والسلطة. ومن ناحية أخرى، فإن الفيحاني من أسرة ثرية ولها قاعدة حضارية مثلها مثل البوكوّارة، وقد تمثل وجود هذه الأسرة في اتخاذها دارين مقراً لها، وفي دارين قصر لجد هذه الأسرة.

وعلى العموم، فنحن لا نتحدث عن الأوضاع في ظل اكتشاف النفط، بل هي أوضاع قبل ذلك حيث كانت الجماعات القبلية ممثلة بشيخها تعيش في هيئة كيانات مستقلة تخضع عموماً للشيخ الذي تتبع له المنطقة. ويحق لنا أن نتساءل: هل كان العامل الاقتصادي أو السياسي وراء هذا الحب؟ ويتضح لنا في ضوء هذه الحالة أن العامل الاقتصادي ليس له أثر في ذلك، وإنما هي الأعراف والتقاليد الاجتماعية التي وجدت مع مجيء الإسلام. وإذا كان البعد الزمني يفصل بيننا وبين العذريين، فإن محمد بن عبد الوهاب شاعر لا تفصلنا عنه إلاّ بضعة عقود من السنين، وقد عاصره الجيل الذي سبقنا. فإذن، لا مجال لأن ننكر وجود أشخاص عذريين حسبما يروي لنا، وإن كان القصص قد لعب دوراً كما في حالة المجنون، كما أنه لا سبيل إلى إنكار عروة، ولا سبيل أيضا إلى افتراض عامل اقتصادي أو سياسي للحب العذري، وعلينا بعد ذلك أن نتحقق من صحة الشعر المنسوب إلى عروة.

وإذا كان الحب موضوعاً إنسانياً عاماً، فإنه إنما يقع بين الأسوياء من الناس ـ الذكر والأنثى ـ. وإذن، فإن الدافع الجنسي أو الحاجة البيولوجية لابد أن يكونا وراء تعلق الواحد بالآخر. ولكن الأعراف والتقاليد التي نشأت مع عزل النساء عن الرجال بعد الإسلام جعلت من اشتهار اسم المرأة سبباً في حرمانها ممن تعلقت به وتعلق بها. وقد قال طه حسين إن كراهية العرب لزواج عاشقين، فشا أمرهما، واشتهر بين الناس عشقهما «مذهب اخترعه الرواة»(٥٠)، ومن العجيب أن عبد الستار الجواري يقول «أرجح أنه على حق فليس بين العرب المعاصرين من يفعل ذلك وإنما هم يغالون في مهر البنت إذا خطبها عاشق راغب فيها»(٥١).

فهذه النظرة المادية التي ينظرها طه حسين والجواري مخالفة كل المخالفة لما هو معروف عن العربي البدوي من شهامة وكبرياء وأنفة. وإذا كان والد عفراء، قد طلب مالاً، فإنما هو حجة يحتج بها ليصرف عروة عن عفراء، فيزوجها في غيبته ليضعه أمام الأمر الواقع. ولعل في قصة الفيحاني دحضاً لكل تلك الإدعاءات. فهو من أسرة ثرية وكان قادراً على دفع المهر المطلوب منه،

ولنا أن نفترض أن الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة كان على استعداد وقد مدحه محمد بقصيدته:

يـاالله يا عالم خفـي كـل مضمـور   يـامن على عرشـه إلـه السماصار(٥٢)

للتدخل والتوسط في القضية لو كان باستطاعته تجاوز الأعراف القبلية(٥٢).

ولذلك، فإن التفسير الصحيح لتلك الظاهرة هو «أن العادات القبلية وقيود الحياة الاجتماعية عند العرب، كانت تحرم الغزل، والتشبيب بالبنات، حتى إنه إذا عرفت القبيلة أن شخصاً تعرض لذكر فتاة من فتياتها في حديثه أو شعره حرموا إليها الزواج منه، ومنعوه من رؤيتها أبد الدهر»(٥٣).

وعلى العموم، فإن هذا المنع يولد إحساساً بالحرمان والألم، ولذلك قال زكريا إبراهيم عن الشعر العذري: «اللغة الشعرية تربط الحب بالجمال، وتنتزع تجربة الحب من محيطها العادي، لكي تسمو بها فوق المستوى البيولوجي والاجتماعي،

فلا تلبث أن تمتد بالحب إلى عالم لا واقعي تصبح فيه غانية الشاعر ملكا سحريا لا ككل النساء، وتصير فيه تجربته الخاصة خبرة فردية لا مثيل لها في عالم الحب، والشاعر يغذي حبه بالآلام، فيحدثنا عن الفراق، والحنين، والبين، والحزن، والشقاء، والعذاب، والغيرة، والعذول، والزمان، والماضي، والموت والخلود ...»(٥٤). كما قال: «والسمة الخاصة التي تميز اللغة الشعرية في كل زمان ومكان هي سمة المبالغة أو الإسراف في التعبير؛ فإن الشاعر يتوهم أنه العاشق الأوحد، وأن عشقه نسيج وحده أو أن معشوقه ملك نوراني لا يكاد يمت بصلة إلى دنيا الناس»(٥٥).

وبذلك يتسامى التفكير عند المحبين عن العلاقة الجنسية ليصبح تقديراً للقيمة التي يسبغها المحبان كل على الآخر، وتكون حالة المحب بعد ذلك مصحوبة بـ «شغل البال والخبل والوسواس وتبدل الغرائز المركبة واستحالة السجايا المطبوعة والنحول والزفير وسائر دلائل الشجا»(٥٦). وهو ما يعبر عنه حديثاً بمرض العاطفة. وربما أدى مرض العاطفة إلى تغييرات كيماوية تؤثر على النفس والعقل. والذي لاشك فيه أن تلك الظواهر النفسية والفسيولوجية هي انعكاسات لحالات نفسية مضطربة. والذي لاشك فيه أيضا أن «وراء هذا التيار الضيق في الحب العذري حساسية قوية، وشعور مرهف، وانطواء على النفس(٥٧). وقد تأكد ذلك في حالة محمد الذي «توفيت عنه والدته - وهي من البوكوارة - وهو طفل في العام الأول من حياته... ولما بلغ الثانية عشرة من عمره توفي أبوه... وأقام في بيت عم والدته... وكان في صغره يميل إلى العزلة(٥٨). وهكذا كان سابقه عروة «يتيماً في حجر عمه، حتى بلغ، فعلق عفراء علاقة الصبا، وكانا نشأ معا»(٥٩). ثم إنه لابد أن تكون الشرارة التي اتقدت في قلب الرجل هي شرارة جمال المرأة، ويتولد عن ذلك ما يعرف بـ «الانبهار» أو «الدهشة» وهو الحب المتولد عن التلقائية(٦٠)، ومن ثم فقد تكون عفراء جميلة، كما أن ملكة قد تكون جميلة أيضا. يقول عروة:

لأدنو من بيضاء خفاقة الحشا　　بنيّة ذي قاذورة شنان
كأن وشاحيها إذا ما ارتدتهما　　وقامت عنانا مهرة سلسان

يعض بأيدان لها ملتقاهما   ومتناهما رخوان يضطربان
وتحتهما حقفان قد ضربتهما   قطار من الجوزاء ملتبدان

ويقول محمد في ملكة:

مهاة من هواها مستريبي   يلوح بعينها سحر عجيبي
تلايم فوقها مثل السبيبي   سبيب الخيل والقبّ الجيادي
حسين الدل عطبول دقيق   إلى ما لاح من خده بريق
سمعت بضامري صفق وخفيق   لكن الطار يرعد به رعادي
تشيل أسلابها ذيك الردايف   وتضفي فوقها سمر العكايف
دقيق الخصر مثل الغصن غايف   حذف قلبي على شوك القتادي(٦١)

وقوله أيضاً:

شمس المحاسن حايط العنق بعقود   حلو الشفايا والثنايا حلايا(٦٢)

ومع أن هذه الأوصاف لا تخرج عن كونها أوصافًا خارجية لجمال المحبوبة، فإنه من المفترض أيضا أن تكون المحبوبة تتمتع بقوة الإيحاء والاستهواء لتثير في نفس المحبوب الشوق واللهفة ولم يتطرق عروة ولا محمد إلى النواحي المعنوية في المرأة المحبوبة، وقد ورد بيت وحيد في شعر محمد يرفع من قيمة محبوبته، ولكنه أيضا في إطار الوصف المادي وهو قوله:

مصيون ما وقّف على دقة العود   ولا تعوّد دوس طرق الخنايا(٦٣)

أما السبب الآخر الذي كان وراء ذلك الاشتعال فهو التآلف والتقارب ولذلك تردد في مؤلفات العشق الحديث الشريف القائل: «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»(٦٤). أو ما عبر عنه بالمشاكلة ونحن نعلم أن عروة كان ابن عم لعفراء وكانا صغيرين يرعيان الغنم، وكان محمد ابن عبد الرهاب ابن خالة ملكة. قال عروة:

فياعم ياذا العذر لازلت مبتلى   حليفا لهم لازم وهوان

وقال:

فياعم لا اسقيت من ذي قرابة   بلالا فقد زلّت بك القدمان

وقال محمد:

وخال ميت مثلك ما يبالي   بتجريح المواضي أو حسامه(٦٥)

وقال:

وياخذ لو من العمّان ثأري   ويبكيني وأنا تحت الرجومي(٦٦)

ثم لابد من الإشارة هنا إلى مدلول «التثبيت» في علم النفس «وهو ارتباط الإنسان في مرحلة مبكرة من مراحل نموه بتجربة معينة أو موضوع معين بحيث لا يستطيع أن ينمي علاقات أخرى»(٦٧). وهو المدلول الذي انعكست آثاره على شخصية شعراء العذرية ومحبوباتها.

فإذا كان عروة شاعر العذرية الأول، فلعل محمد بن عبد الوهاب الفيحاني هو شاعرها الأخير. وإذا كان عروة قد صرح باسم عفراء في قصيدته فقال:

ألمّا على عفراء إنكما غدا   بشحط النوى والبين معترفان

ثم قوله:

فعفراء أرجى الناس عندي مودة   وعفراء عني المعرض المتواني

فإن محمد بن عبد الوهاب لم يصرح باسم محبوبته ملكة إلاّ مرة واحدة في ديوانه المطبوع، ولعل أبياتًا أخرى تحمل اسمها لم تصلنا بعد، وفي ذلك البيت يقول:

فإن كان أخو ملكا تركني فأنا وين   غادي وشوف الخير وين وينه(٦٨)

وقد لجأ محمد بن عبد الوهاب، إلى استعارة اسم آخر لمحبوبته، هو «مي» في قوله:

تولعت مع مي على اليا، لأمها   على حسبة العشرين بالعد قايمه(٦٩)

وقوله:

قصت حبالك من عقب وصلها مي واستبعدت من عقب ما هي قريبه(٧٠)

ونجد تشابهاً في الشعر بين عروة ومحمد في قول الأول:

كأن قطاة علقت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان

ويقول محمد:

ألآ وقلب كن به يخفق الطير بشفاه عن جرف من البين عايب(٧١)

أما القاسم المشترك في شعرهما فهو تلك الأبيات التي يتوجه بها كل واحد منهما إلى الطبيب ملتمساً عنده الشفاء. وإذا كان عروة قد مات وهو يعاني مرض الحب الذي خالط عقله وروحه وأثر على جسده، فكذلك كان محمد بن عبد الوهاب يقول عروة مخبراً عن حاله مع العرافين:

جعلت لعراف اليمامة حكمة وعراف نجد إن هما شفياني
فقالا نعم تشفي من الداء كله وقاما مع العواد يبتدران
فما تركا من رقبة يعلمانها ولا سلوة إلا وقد سقياني
وما شفيا الداء الذي بي كله ولا ذخراً نصحا ولا ألواني
فقالا شفاك الله والله ما لنا بما ضمنت منك الضلوع تدان
فرحت من العراف تسقط عبرتي عن الرأس ما التاثها ببنان
مع صاحبها صدق إذا ملت ميلة وكان يدني نضوتي عدلاني

أما محمد بن عبد الوهاب فيذكر أطباء أمريكان عملوا في البحرين وقتئذ وهما هريسن وديم:

الحب طبه عسر واعجز هريسن وديم(٧٢)

ويقول:

ما يداوي علتي بدواه ديم لو يداويها قدر ستين عام
وإن نشدني قلت طبي ياحكيم بين بيض كالبرد تحت اللثام(٧٣)

وهكذا، فإن دراسة الحب عن الشعراء النبطيين ممن ذكرهم الشاعر الفيحاني، وممن لم يذكرهم، قد تسلط أضواء جديدة على الحب في جانبيه العذري والصريح. ومازال كثير من المسائل الأدبية تنظر الحل، وإن أقرب مصدر يمكن أن يلتمس لذلك هو أولئك الشعراء النبطيين والحياة العربية في الجزيرة العربية حتى عهد قريب.

التعليقات

(١) ديوان الفيحاني (قطر . دار الكتب القطرية ١٣٨٦هـ) ص ٨١ .

(٢) المصدر نفسه ص ١ .

(٣) المكتب العالمي للبحوث : الحب عند العرب . (بيروت . دار مكتبة الحياة ب . ت) ص ٤٤ .

(٤) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة : الشعر والشعراء . (مصر ـ مط دار المعارف ١٩٦٦م) جـ ٢ ص ٦٢٥ ـ ٦٢٦ .

(٥) عبد اللطيف شرارة : الحب عند العرب . (بيروت ـ دار مكتبة الحياة ـ ط . أولى ١٩٦٠م) ص ٨٣ ـ ٨٨ .

(٦) محمد حسن عبد الله : الحب في التراث العربي . (الكويت . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ١٤٠٠هـ/١٩٨١م) ص ٣١١ ـ ٣١٢ .

(٧) ابن قتيبة . الشعر والشعراء . ص ٦٢٧ .

(٨) ديوان علقمة الفحل . تح : لطفي الصقال (و) درية الخطيب (حلب مط الأصيل ط . أولى ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) ص ٣٣ .

(٩) ديوان بشر بن أبي خازن . تح : عزة حسن (دمشق مط مديرية إحياء التراث القديم ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م) ص ١ .

(١٠) ديوان الشماخ بن ضرار . تح : صلاح الدين الهادي (مصر ـ مط دار المعارف ١٩٧٧م) ص ٧٧ .

(١١) أحمد محمد الحوفي : الغزل في العصر الجاهلي . (مصر . مط لجنة البيان العربي ـ ط . أولى ١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م) .

(١٢) أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيباني . شرح المفضليات . تح . علي محمد البجاوي (مصر ـ مط دار نهضة مصر ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) جـ ٢ ص ٨١٨ ـ ٨١٩ .

(١٣) عبد الله أنيس الطباع : الحب والغزل (؟؟) ص ٢٦ .

(١٤) المصدر نفسه ص ١٩ .

(١٥) أحمد عبد الستار الجواري : الحب العذري : نشأته وتطوره . (مصر ـ مط دار الكتاب العربي ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م) ص ٥٧ .

(١٦) يوسف اليوسف ، الغزل العذري ، (بيروت ، مط دار الحقائق ١٩٦١م) ص ٢٩ . ولكن اليوسف مع الأسف الشديد ، وعلى الرغم من قدرته الفائقة على الاستنباط والتحليل قد أدرج عروة ضمن الجاهليين ص ١٤٩ ، ١٥٢ ، مع تناقض ذلك مع نتائجه ، حيث قال : « والحقيقة أن هذا الشاعر يبدو عذريا أكثر من العذريين ، لا في أسلوبه فحسب (وهو أسلوب بعيد كل البعد عن الأسلوب الجاهلي) ، بل في روحانيته كذلك » ص ١٤٩ ، ومع شعوره شخصياً بذلك التناقض حيث قال عن النونية : « أراني أرتاب في أن تكون القصيدة النونية .. من شعر هذا الجاهلي » ص ١٤٩ .

(١٧) محمد مرتضى الزبيدي ، تاج العروس ، (فيأ) .

(١٨) عبد الله ، الحب في التراث ... ص ١٦ .

(١٩) طه حسين ، حديث الأربعاء ، (مصر ـ مط دار المعارف ١٩٥٩م) جـ١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

(٢٠) شرارة ، فلسفة الحب ، ص ٩٣ .

(٢١) الطباع ، الحب والغزل ، ص ١٩ ـ ٢١ .

(٢٢) طه حسين ، حديث الأربعاء ، جـ١ ص ٢١٨ .

(٢٣) عبد الله ، الحب في التراث .... ص ٨٢ .

(٢٤) المصدر نفسه .

(٢٥) المصدر نفسه .

(٢٦) أبو الطيب محمد بن إسحق بن يحيى الوشاء ، الموشى ، (بيروت ـ مط دار بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م) ص ٨٦ .

(٢٧) شعر الأحوص الأنصاري ، تحقيق عادل سليمان جمال (مصر ـ مط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٠ / ١٩٧٠م . ص ١٠٧ .

(٢٨) الوشاء ، الموشى ص ٨٥ .

(٢٩) المصدر نفسه .

(٣٠) ديوان العباس بن الأحنف ، تح : عاتكة الخزرجي ، (القاهرة ـ مط دار الكتب المصرية ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م) ص ١ ـ ٢ .

(٣١) ديوان الفيحاني ، ص ٢٣ .

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ص ٦٦ ـ ٦٧ .

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ٥٥ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٦٧ .

(٣٥) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي ، ذيل الأمالي والنوادر ، (مصر ـ مط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م) ص ١٧٦ ـ ١٨٠ .

(٣٦) المصدر نفسه ص ١٧٦ .

(٣٧) ديوان الفيحاني ، ص ١ .

(٣٨) القالي ، ذيل الأمالي ، ص ١٧٦ .

(٣٩) يان فانسينا ، المأثورات الشفاهية تر : أحمد مرسي (القاهرة ـ مط دار الثقافة ١٩٨١م) ص ١١٨ ـ ١١٩ ، ١٤٩ .

(٤٠) القالي ، ذيل الأمالي .... ص ١٧٦ .

(٤١) محمد سعيد الدغلي: أحاديث غزلة. (دمشق - مط الرازي ط. أولى ١٩٥٨م) ص ٣٩٣. وانظر: عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي (مصر - مط دار النهضة العربية ١٩٧٦م) ص ١٣٣ - ١٧١.
(٤٢) المصدر نفسه.
(٤٣) ديوان الفيحاني، ص ١٣ - ١٨.
(٤٤) المصدر نفسه، ص ٢٥ - ٣٠.
(٤٥) المصدر نفسه، ص ٦٨ - ٧٣.
(٤٦) المصدر نفسه، ص ١.
(٤٧) المصدر نفسه، ص ١٠٧.
(٤٨) المصدر نفسه، ص ١٠٩.
(٤٩) أبو الفرج الأصفهاني. الأغاني. بيروت. مط دار الثقافة ١٩٥٥م ك ٢ ص ٦ وانظر عن مجنون بني عامر ص ١ - ٧٩ ففيه تفصيل دقيق للحالة النفسية للشعراء العذريين. وانظر الجواري. الحب العذري. ص ٥٩.
(٥٠) طه حسين، حديث الإربعاء، جـ ١ ص. ١٨.
(٥١) الجواري. الحب العذري. ص ٦٨.
(٥٢) ديوان الفيحاني، ص ٦٨ - ٧٣.
(٥٣) عبد الرحمن أحمد طالب الملا. ماهية الحب (؟ ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ص ٣١.
(٥٤) زكريا إبراهيم. مشكلة الحب. (مصر مط دار مصر للطباعة. ط. ٣ ب. ت) ص ٢٨.
(٥٥) المصدر نفسه.
(٥٦) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم. طوق الحمامة. تح: الطاهر أحمد مكي (مصر - مط دار المعارف. ط ٢ ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ص ٢٢.
(٥٧) الجواري: الحب العذري. ص ١٠٤.
(٥٨) ديوان الفيحاني. ص ١.
(٥٩) ابن قتيبة. الشعر والشعراء. جـ ٢ ص ٦٢٢.
(٦٠) الجواري. الحب العذري. ص ٢١.
(٦١) ديوان الفيحاني. ص ٢١.
(٦٢) المصدر نفسه ص ٢٧.
(٦٣) ديوان الفيحاني. ص ٢٧.
(٦٤) ابن حزم: طوق الحمامة. ص ٢٣.
عبد الله. الحب في التراث..... ص ١٤٥ - ١٥٧.
(٦٥) ديوان الفيحاني. ص ٧٨.
(٦٦) المصدر نفسه. ص ١٠٢.
(٦٧) يوسف الشاروني: الحب والصداقة (مصر - مط - دار المعارف ١٩٧٥م) ص ٣٦.
(٦٨) ديوان الفيحاني. ص ١٢.
(٦٩) المصدر نفسه ص ٤٧.

أما قوله مستخدما الاسم «سلمى»

وإن جرى من جور سلمى ما جرى   وفجعتك وفَلّلت لم الحزيم

فهو كناية عن الدنيا، وليس المرأة. انظر: مبارك عمرو العماري المصدر نفسه ص ٥٢. الوسمي (البحرين ط أولى ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) ص ٨٩.

(٧٠) ديوان الفيحاني ص ٧٣.

(٧١) المصدر نفسه ص ١١٢.

(٧٢) المصدر نفسه ص ٥٣.

(٧٣) المصدر نفسه ص ٦٦.

وإذا كان ذكر الطبيب قد دار على ألسنة العذريين، فقد تردد أيضًا على ألسنة الشعراء النبطيين مثل قول أحدهم:

قال الطيب اش تشتهي قلت لا ما   عجّاب لعّاب ورانايف هضاب
أفكر وقال أدواك حزر اللثاما   قلت أي نعم من ريق معسول الأنياب

روضة الشعر. (البحرين - مط الحكومة. ط ٢. ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ص ١٣٦ - ١٣٧.

وقال ماجد بن صالح الخليفي:

دعو لي بالطبيب وجاك ينقل   مساميره أبيكويني غشامه
قبضني جني واقفي يقول   مريض الحب ما تبرا سقامه

ديوان ماجد بن صالح الخليفي (قطر - دار الكتب القطرية ١٣٨٣هـ) ص ١٤.